2017/08/06

صحيفة ثقافية
قاب قوسين

نظرة في "الأسطورة في شعر أدونيس"

نشره webmaster في 02/27/2012

(http://www.qabaqaosayn.com/printmail/2556) (http://www.qabaqaosayn.com/print/2556)

د. إبراهيم خليل*

انطلق أدونيس منذ بداياته ليواصل حفر سواقي الغموض، وينقب في الأساطير،

بحثاً عن فكر جديد، وولادة جديدة، مما شدَّ إليه، وإلى شعْره، القراء الذين يلذ لهم الغموض، الذي يستثيرُ الفكر، ويعصف بالذهن، وينشّط الخيال، ويخلخل المألوف، ليعرّيَهُ من ماضيه، ويكسوه ثوب اللازمن. لهذا كله رأت المؤلفة رجاء أبو علي أنْ ترافق الشاعر في تنقلاته السندبادية لتقدم للقارئ ثمرة هذا الارتحال كتاباً نقديًا يحلل نتاجه من منظور أسطوري. ولا ريب في أنّ الرحالة لا بد له من "زوَّادة"، وزاد المؤلفة لا يتعدى في حالتنا هذه المصادر التي في مُقدمتها كُتُبُ أدونيس، تليها الكتب التي تتحدث عن الأسطورة، من حيث هي نوع أدبي، فأشارت إلى آثار فراس السواح، وغيره، من أمثال: شتراوسStrauss.

ومن ينظرْ في الكتاب يجد فيه بابين كبيرين يُمهّدان لدراسة أدونيس.

ففي الأول عنيتْ بالجانب المفاهيمي، والتكويني، للأسطورة، ولا ريْب في أنّ أوجه النظر حول تعريف الأسطورة تختلفُ، وتتباين، من باحث لآخر، ومن دارس لدارس، فمن الناس من يعدها جنسًا أدبيا يقوم على التخييل الخلاق، ومنهم من لا يرى فيها سوى خرافة تعرض الفكرة في ثوْب المَحكيّ المتخيل الذي لا يُصدق. وأيا ما كان الأمرُ، فإنَّ الأنواع الأدبية – عموماً – ابتداءً من الملاحم الشعْرية القديمة، والنصوص المسرحية، والشعر الغنائي، والقصصي، انتفعت بالأساطير، وجعلتها جزءاً من نسيجها الفنيّ من دون مبالاة بما إذا كانتْ تمثلُ نوْعاً أو جنساً، وأنَّ لها حظاً، أو نصيباً من الواقع. وقد كثرَ توظيف الأساطير في الشعر العربي الحديث بتأثير الشعر الغربي، ولا أحدَ ينكر هذه الحقيقة، وقد رأت الباحثة أنْ تُقدّم للقراء إجابة عن سؤال: كيف اتّصل الشاعر العربي الحديث بالأساطير، ولماذا اتجه هذا الاتجاه؟ وهلْ لذلك الاتصال أثرٌ في شيوع ظاهرة الغموض التي كثرَ حوْلها اللغط؟.

أما أنّ الشاعر العربي الحديث اتجه لتوظيف الأساطير في شعره، فلذلك أسبابٌ أحدها التأثر بالشعر الغربي، ولا سيما بشعر إليوت Eliot وقصيدة المشهورة الأرض اليبابThe Waste Land، ومع التسليم بصحة هذه الفرضية التي تؤيّدُها القرائن، إلا أنّ هذا لا ينفي احتمالا آخر قد يرجَحُ في موازينه على هذا الاحتمال، وهو أنّ الشعر – بطبيعته – تعبيرٌ عن حاجات الإنسان الرّوحية، والجمالية، ولجوء الشعر للأسطورة يغذي فيه مثل هذا التعبير، ولا سيّما أنّ الأسطورة – أساساً– تتضمّن الكثير من الغذاء الروحي الذي يَخْرج بالشعر على نمط الحياة المادية الرّتيب. زيادة على ذلك فإنّ الأسطورة – في ما نرى – تفعيلٌللصورة، وإذا سلمنا بأنّ الشعر تعبيرٌ بالصُّور، فإنه تبعًا لذلك، لا يخلو من أنْ يكون تعبيرًا بالأساطير.

أما توظيفُ الأسطورة في الشعر، وتأثيره في غموضه لدى المتلقي، فترى المؤلفة أنَّها أغنت القصيدة، ودفعت بها إلى التحوُّل من الطابَع الغنائيّ البَسيط ، الفجّ، إلى البناء الدرامي الذي له مقوّماته، ومفاهيمه المعْروفَة التي تنْمازُ بتعدّد الأصوات، وتنوّع الراوي، ولهذا اختلفت عن القصيدة القديمة بثرائها الدلالي، ممّا يجعل القارئ يجد نفسه أمامَ نصٍّ ينأى به عن الطابع المفاهيمي للغة، إلى آخر تصويري، تغدو فيه القصيدة مركز إشْعاع كونيّ ، قابلاً لكي يُرى من وجوه كثيرة، لا من وجهٍ واحدٍ، هو المعنى، مثلما هي الحال في الشعر القديم.

يعدّ الباب الثالث ، وهو الذي يبدأ في الصفحة ذات الرقم 127 وينتهي في الصفحة 287 هو المتن الحقيقي للكتاب، ففيه ثلاثة فصول مُخصَّصة مباشرةً لبحث علاقة أدونيس بالأسطورة. فهو دائمُ السَّعْي لاكتشاف كتابةٍ جديدة تتحقق عن طريق الصراع مع اللغة، لتغدو قادرة على التعبير عما يريده من القوة، والنفوذ، والسِّحْر، متقمّصاً الشظايا، والموج، دافعًا بالعالم لينشطر في شعره، ويلتئم، ففي كلِّ إبْداع شعري صراعٌ مع اللغة، وهذا الصراع

يؤدي في رأي المؤلفة إلى تجاوز اللغة السائدة، لتبدوَ في شعْرِهِ كأنها تولد من جديد. هذا هو منْهج أدونيس في التعامل مع الأسطورة. فهي أداته الوحيدة، والفاعلة، في منح المفردة، والتركيب الشعري، روحًا جديدة، فتصبح القصيدة على هذا الأساس، وكأنها نسيجٌ تستخرج خيوطه ذات الألوان المتعددة، والأصباغ الكثيرة، من اللغة السائدة ذات الألوان الباهتة الكامدة.

لهذا السبب تنوعت الأساطير في شعره.

فهو لا يقتصرُ على البابلية، والسومرية، ولا على الأساطير الفينيقية الساميّة، ولا على أساطير الإغريق. ويتسع إطارهُ ليلتحمَ بشخصياتٍ غيْر أسْطورية: دينية، وتاريخية، وثقافية، وأدبية ليضفي عليها بعدًا خارقا يقرّبُها من الأسطورة، ففي شعره– مثلا – يَسْتدعي المسيح عند الصلب في غير قصيدة. وفي إحداها (تحوُّلات الصقر) تعامل مع عبد الرحمن الداخل "صقر قريش"كما لو كانَ أسطورة. وفي أخرى"فارس الكلمات الغريبة" تعامل مع مهْيار الدمشقي باعتباره نموذجاً أسطورياً، وهو نموذج حقيقيّ، لا أسطوريّ. وعلى هذا النمط نجد الكثير من النماذج التي وصفها عالم النفس كارل يونغJung بـ" النماذج العليا archetypesفي الأدب" لكوْنها تعبّر تعبيرًا صادقاً عما يوصف باللاوعي الجمْعي.

وتتكدَّسُفي شعره الأساطير التي تتكرر في أشكال متعددة، فإذا ذكر تموز في قصيدة، ثم أعاد ذكره في أخرى، كان الشكل التعبيري الناتج عن اعتماده هذا النموذج مختلفًا تمام الاختلاف. وقد عرضت مؤلفة الكتاب مراراً لمثل هذا، فعلاوة على ما سبق نجده يكرر أسطورة عشتار، وأفروديت، وأناناّ، وهو الاسم السومري لعشتار، ويُنمْذجُ –إذا ساغ التعبيرُ – الأسطورة الأوزيريسية، وهي من أساطير وادي النيل، مثلما يُنَمْذِجُ أسطورة أورفيوس، الشاعر الموسيقي الذي روت عنه الأساطير الإغريقية الكثير من القصص، مؤكدة انبهار الإغريق بعزفه على القيثارة، لدرجة كان فيها قادرًا على أسْر كلِّ منْ يسْمَعُه: الإنسان، والطير، والحيوان، وحتى النبات، والجماد. وذكروا حبيبته (يورديسي)التي استطاع بعد موتها التأثير في آلهة العالم السفلي بموسيقاه فترقّ له، وتعطف عليه، وتمنحه فرصة الرجوع بها إلى العالم الدنيوي بشرط ألا يلتفت وراءه، لكن الشوق دفعه للالتفات، فما كان من قوى الموت إلا أنْ أعادتها على عجلٍ للعالم السفلي. وعاش بقية حياته حزينًا كاسِفَ البال، إلى أن قتلته بعض النسوة غيرةً، وكيْداً. وألقين برأسه في نهْر، وظلّ الرأسُ يردّد بصوت عالٍ يوريديسي .. يوريديسي..

وعلى هذا النحو ظهرت في شعره أسطورة سيزيف الذي غضب عليه ربُّ الأرباب في جبل الأولمب، فحكم عليه بعقوبة قاسية، وهي أنْ يرفع صخرة من سفح جبل إلى قمته، وكلما اقترب منها سقطت الصخرة وتدحرجت إلى السفح، ليعود بها، ويصعد ثانية. فهي ترمز إلى العناء الأبدي الذي لا ينتهي، والعقاب الإلهي الذي يتجاوز حدود الاحتمال. ومن أشهر الأساطير التي تكرَّرتْ في شعر أدونيس (العنقاء) وهي حكاية طائر خرافيّ يحترق ثم ينبعثُ من رماده حياً، وله أسماء، منها: العنقاءُ عند العرب، و(البنو) عند قدماء المصريين، والفينيق عند الآشوريّين، والإغريق، والرومان. وقد عرضت المؤلفة لتاريخ هذه الحكاية، منبّهَة على ظهورها في شعْر أدونيس، جاعلا من الفينيق رمزاً يتعدى بدورهِ الدلاليِّ حدود الاقتباس.

وقد وقفتْ بنا إزاء قصيدة "البعث والرماد"* وفيها تتجلى هذه الأسطورة، لا من خلال تكرار الأسماء مثلما يُظنّ، وإنما من خلال البطل العاشق الذي يحترق في القصيدة فداءً لغدٍ ينبعث فيه جديداً. وهو يتوق للحظة الاحتراق العجيبة ظافرًا بالشمْس والأفُق.

وصفوة القول أنّ هذا التراسل بين القصيدة والأسطورة فرض على قارئ أدونيس وشعره فروضاً، في مقدمتها أن تختلف استراتيجيات القراءة، فبدلا من أن يبحث عن المعنى عن طريق الشرح المدرسي الذي عرفه القراء، عليه أن يعيش الحلم الذي تحاول القصيدة إدخاله فيه، وعليه أيضاً أن تكون له مرجعياته الذهنية، وبناهُ المفاهيميّة، فلا يخطئ الفهم في أنّ طائر الفينيق الذي ذُكر في القصيدة يعني كذا، وليس كذا.

صدر الكتاب عن دار التكوين في دمشق 2009

* أكاديمي وناقد من الأردن

أعجبني مشاركة حاز هذا على إعجاب 11 من الأشخاص. كن الأول من بين أصدقائك.